بانتظار صلاة القمر

قصة بقلم وليد اخلاصي

زنجرت اعماقي ، كان اصفرارها المشرق منذ سنين شيئا له قيمة، وكذلك عندما علته خضرة الطحلب بقيت له قيمة ، من نوع اخر .

اشتكيت الى جدران غرفتي ، من مللي ، قالت زوجتي :

ـ ليس لنا سوى الجبل !

قلت لنفسي ونحن في طريق السفر :

ـ الجبل هو ما اريد ، مكان يعلوعن المدينة ..

وجعلت زوجتي تحدثني وانا من وراء المقود اغالب التعب :

ـ لم ار (الصلنفة) منذ سنين ، خمس عشرة .. ست عشرة ! لا ادري

نظرت اليها في حنان وانا اتمتم :

ـ لم ازرها بعد ، هل هي هادئة ؟

انشغلت زوجتي باخراج سيجارة من العلبة ، وبينما كانت تضعها في فمي كنت اتأمل سفوح الجبال المخضرة تمتص الشمس فلا يبقى غير الدكنة . لم يكن هناك بشر ، الماعز وحده يتسلق الاعالي . قلت وقد توقفت بالسيارة عند منعطف عريض :

ـ اسمعي الصمت !

قدمت لي رجاء رغيفا ، قالت :

ـ الست جائعا ؟

كنت أستمع الى الصمت يحدثني ، اما زوجتي فقد هتفت بعد لحظات :

ـ كيف اسمع الصمت ؟ انه لا يتكلم ..

راودتني رغبة ملحة في ان اقفز الى الوادي ، ما اسعدني طائرا في جو الصمت المخضر ؟!

وصرخت رجاء مشيرة الى قمة شجرة مجهولة لدي :

ـ انظر العقاب ماذا يحمل بمخالبه ؟!

وخدش صوت الطير عبادتي فانفتلت عائدا الى السيارة وانا اتمتم :

ـ أرنب مسكين ..

وتمزق الصمت تماما عندما دوى بوق سيارة شاحنة تهدر كمائة فيل اسيوي ، مرقت من قربنا محملة بالاكياس حتى الخطر ، طار العقاب وسقط الارنب في الوادي السحيق ، دخلنا السيارة وقد تلولب الصداع في رأسي فاداره . قلت في حرقة :

ـ حتى هنا لا نجد الهدوء ..

كانت رجاء تشعل سيجارة وقد احتفظت بها مدة قبل ان تعطيني اياها ، سألتها وقدمي تدوس على الوقود في اصرار لا منطقي :

ـ هل يتسلى اهل الصلنفة (بالبزر) ؟

ـ لا اذكر !

كان موسم قدوم الحجيج قد حل في (حلب) ، تذكرته باصوات سياراته والاعلام المرفوعة والسيوف المشروعة ، وطلقات الرصاص تدوي في السماء . كانت الضجة تتسلل الي ، تدخل لحمي ، عظامي وانا في بيتي ، عملي ...

وجعلنا نطوى الطريق . اشارت رجاء الى جدول مائي اختلطت فيه الخضرة بالازرق ، وكان ثمة قارب يرسي على رماله ، قالت :

ـ انظر !

ـ قارب صيد ..

ـ نسيه صاحبه !

وهمست في يقين العارف :

ـ هرب من صاحبه ..

ولم يعكر صفو رحلتي نحو الجبل سوى قطيع من الاغنام ، كان ثغاؤها على كل حال لا يشابه هدير سيارات الشحن المتجهة الى البحر. وقفنا طويلا ننتظر الاغنام تمر ، احسست برغبة في الايذاء ولكني تذكرت اولاد اخي الثلاثة ، ابتسمت ، سومر .. كنان .. سوسن .. هتفت زوجتي

ـ انظر ما اجملها !

واستشعرت الاسى في هتافها ، كان زواجنا منذ سنين ثلاث ، لم يأتنا بولد ، وحزنت لزوجتي تبقى في البيت وحيدة . اما انا فقد قررت ان اصل الى الهدوء باقصى سرعة ممكنة .

كان الطريق وهو يخترق بنا مسالك الجبل ، يعطيني الامل في هدوء اكثر ، وكانت الحشائش الجبلية بانتشارها بين الصخور تذكرني بكمين لجماعة من الثوار ..

وكذلك وقفت انا في فخ المدينة وانقض الضجيج على حياتي ..

والتفت الى زوجتي اريد ان احدثها عن ذاك الفخ ، وجدتها مسبلة العينين تتنفس في هدوء ، كقطة جدتي على وسادتها الحرير البنفسجية.

ـ ما احلى جدتي ! طوعت الصمت ، فلم يبق سوى هرير القطة ..

وشعرت برغبة متدفقة في ان اقبل رجاء وهي تحلم . كنت ماهرا في قبلتي الحانية اذ حافظت على مقود السيارة دون اهتزاز . ولفت نظري هدهد يطير ، كنا قد وصلنا الصلنفة .

قلت لزوجتي ونحن نجلس في ردهة الفندق الواسعة :

ـ سنمضي اياما رائعة !

وكان الليل قد رش القرية بالسكينة فخرجت التمس الهدوء تاركا زوجتي في الغرفة تتابع نومها . رجوتها ان تذهب معي في رحلة قصيرة ولكنها لم تستطع حتى ان ترفض ، ذهبت في سبات عميق بينما هي تتأملني ارجوها ..

وهكذا كان الليل ، جعلت ادب في الشارع الرئيسي نحو حدود القرية ترافقني اصوات الصرصور توقع للصمت اغنية ، وضمدت الرطوبة الجافة جروح ارهاقي فاشتدت ساقاي .

تابعت رحلتي باتجاه الفضاء المتسع وهو يلف الصلنفة بهالة من اشعة القمر المبرقشة بظلال النباتات والصخور . لم يفزعني صوت كلب بعيد ، سحرتني عبادة السرو المتواصلة لاشعة القمر ، كان السرو كأعمدة المعابد السامقة والقمر اله يبارك ..

ـ القمر اله الصمت !

وجلست على صخرة اراقب . جعلت السكينة تمتص الضوضاء التي في داخلي وتكنس ادران المدينة ، ولفتني حالة من الرقة حتى كدت اقول شعرا ..

ولم تعد لحياتي السابقة قيمة ، حتى كراهيتي لبعض الاشخاص لم

تكن عندي القدرة في استرجاعها ، كانت نسمات المعبد تسكرني ، تمنيت نفسي طائرا عشه بصمات القمر على صخرة وحيدة ، او جندبا عالقا بشباك النور الفضي ..

تمنيت ان ابقى هنا دهرا ، اتطهر واصلي ، اشف واستشف. وكان القمر في عليائه يستدير حول نفسه في حركة لا نهائية ، غير ملحوظة ، سلبتني القدرة على العودة ، ابتلعتني في دورتها ، وكنت ادور في الفلك واعماقي تتناثر بفعل تلك القوة ، كان الحقد اول ما طفا والغيرة والغضب والتخطي من غير حق ، وكانت كذباتي تخرج ايضا ، ولم يبق غير انا في حالة من الاشراق ..

وعندما حملتني قدماي الى الفندق في طريق مفروش بالتعب ، عاهدت نفسي على العودة الى المعبد في الليلة القادمة . واستقبلتني الغرفة مملوءة بانفاس حبيبتي ، نظرت اليها واشفقت عليها ، لم تصل ملثما صليت انا !!

وبعد منتصف الليل بقليل اسيقظت ، كان احدا انذرني ، قمت الى النافذة انظر في نهم الى سفوح الجبال المتعانقة مع القمر المائل نحو البحر ، كانت عيناي مثقلتين بتعب الماضي وارهاق العبادة ، وجعلت افتحهما باصابعي ، التقط بهما اكثر مما اطيق من جمال ، ولكني لم استطع ان اتابع ، هويت ..

ايقظتني زوجتي في الصباح ، استجابت عيناي لقبلاتها عليهما ، هتفت في فرحة الطفل :

ـ كان الليل رائعا !!

ـ كنت متعبة ..

ـ كان القمر يبارك اشجار السرو .

وقالت رجاء وهي تنتهي من ارتداء ملابسها المزهرة :

ـ هيا نمشي قليلا ..

ـ الهدوء في الليل يا رجاء عبادة ، لم تزعجني كلاب الرعيان .. قالت :

ـ سانتظرك في الردهة .

وبينا نحن نتناول الافطار كنت احدثها

وقضيت يومي بالانتظار ، كان مريعا ان اتحمل اهل الغرفة المجاورة ، الزوجة تهدد بالسفر الى المدينة ، والرجل يرسل صوتا كنقيق ضفدع عجوز ، وصياح بائع الخيار ، حتى الشمس لم اعد اتحملها تجرح بصري ، جعلت انتظر القمر ..

وكان بعد الظهر مشلولا ، جلست مغمض العينين في شرفة الفندق انتظر ، ورجاء تقرأ قصة ، اما المغرب فقد اعطاني الشجاعة ، وكنت من قبل اكره تلك الفترة ، تشعرني بالتعادل ..

وسكنت القرية ، اهل الفندق في الردهة يرقصون ويلعبون الورق، وانوار الصلنفة اختبأت وراء الجدران الطينية .

كانت زوجتي متعبة ، لم اناقشها ، تركتها في الغرفة تشرب كأسا من اللبن سارحة ببصرها في الوادي الممتد امام النافذة .

وهرعت ملهوفا نحو المعبد ، كنت أتفكر :

ـ لو اني صليت اسبوعا في السنة ؟ اسبوعا واحدا ..

ـ سأغمض عيني قبل ان أراه .

ماذا اريد ؟ الهدوء ؟

نلته !

ثم .. ثم .. ثم

وقفت في ساحة المعبد انظر ، كان السرو يتحرك ، اما القمر فلم يكن له اثر والظلمة اختلطت بحشرجة الاشجار ، اختنقت الساحة بظل غيمة كبيرة .

وكان القلق يبحث معي عن قمري السجين وراء لطخة رهيبة .

وتوقفت الريح الخفيفة ، هدأ السرو ، اما الغيمة فلم تتحرك من مكانها . انتظرت حتى الفجر ولم يظهر .

وليد اخلاصي

سلسلة المسرحيات العالمية

سلسلة جديدة تقدم فيها دار الاداب مجموعة رائعة من أشهر المسرحيات العالمية التي وضعها كبار كتاب المسرح

صدر منها :

١ ـ البغي الفاضلة وموتى بلا قبور

بقلم جان بول سارتر

ترجمة الدكتور سهيل ادريس والمحامي جلال مطرجي

الثمن ٢٠٠ ق.ل

٢ ـ ماريانا

تاليف فديريكو غارسيا لوركا

ترجمة شاكر مصطفى

الثمن ٢٠٠ ق.ل

٣ ـ هيروشيما حبيبي

تاليف مرغريت دورا

ترجمة الدكتور سهيل ادريس

الثمن ٢٠٠ ق.ل

٤ ـ لكل حقيقته

تاليف لويجي بيراندللو

ترجمة جورج طرابيشي

الثمن ٢٠٠ ق.ل

٥ ـ تمت اللعبة

تاليف جان بول سارتر

ترجمة مجاهد ع. مجاهد

الثمن ٢٠٠ ق.ل

منشورات دار الاداب ـ بيروت